

اللازمة القرآنية (يسألونك... قل)

دراسة في النحو والدلالة

أ. حسن رمضان الخرزة

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية التربية - الزاوية
جامعة الزاوية

تمهيد:

يتناسق القرآن الكريم على اتساعه في بناء واحد يمسك بعضه ببعض؛ وفي خلال هذا البناء المتناسق تظهر ترابطات خاصة تجمع بين سور وآيات عدة، من ذلك أن بعض السور تتقارب فيما بينها لكونها ذات مفتحات مشتركة أو متقاربة، وأن عدداً من الآيات يجمها كونها استفهاماً أو شرطاً أو قسماً أو غير ذلك من الأساليب المستخدمة في العربية.

هذا البحث يسعى إلى مناقشة طائفة خاصة من الآيات التي جاءت إجابة عن أسئلة طرحها بعض الناس على الرسول صلى الله عليه وسلم، منها ما هو سؤال طرح بقصد الإفادة،

ومنها ما هو سؤال للتعجيز، وغير ذلك، وقد اختلف الناس في مواقفهم من الدين الجديد الذي دعا إليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس السؤال الموجه إلى الرسول كالسؤال الموجه إلى غيره من البشر، فأجابات الرسول صلى الله عليه وسلم موجهة بالوحي من عند الله تعالى، والقرآن الكريم سجل وافٍ لجملة من الأسئلة وإجاباتها، وبالتدقيق في بعض تلك الأسئلة وإجاباتها يتضح أنها تشكل سلاسل مميزة لها خصائصها اللغوية صوتاً وتركيباً ودلالة، ولها تفردها الأسلوبية عما سواها.

من وسائل التعبير القرآني "إعادة تركيب بعينه على هيئة لازمة"⁽¹⁾، وهذا هو الجانب الذي تركز عليه هذه الدراسة. ولشدة حساسية هذا النوع التعبيري من الوجهة الإيقاعية خاصة فقد نظر بعض الدارسين إلى تلك الظاهرة "كأنها لازمة شعرية أو خطابية تربط الآيات وتوجه النظر إلى الغاية منها"⁽²⁾، ولشبهها ببنية الأسجاع فقد أطلق عليها دارسون آخرون مصطلح (المُحَلَّى بالعائد) لاشتمالها "على فقرة يتكرر إيرادها في تضاعيف الكلام لتكسبه رنة موسيقية خاصة، ولتترك في النفس أثراً قوياً جداً"⁽³⁾، وأياً كان المصطلح فإن المفهوم في أساسه يشير إلى جملة من الآيات المنتشرة في القرآن الكريم، يجمع بينها التشابه في التركيب، والتقارب في المضمون بوجه يستطيع الذهن إدراكه وتمييزه، ومن المؤكد أن ما جاء في القرآن الكريم يقع فوق ما هو متاح للبشر؛ لكونه إعجازاً ربياناً، وليس من أهداف هذه الدراسة موازنة كلام البشر بكلام الله تعالى.

تكررت في القرآن الكريم آيات تذكر سؤال سائل أو سائلين، ثم ترشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الجواب بكلمة (قل) لذلك تسمى مجموعة هذه الآيات بسلسلة أو لازمة (يسألونك قل)، وهي تقع ضمن لازمات أخرى مثل لازمة (وإذ قال) ومنها قوله تعالى: [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] ⁽⁴⁾، وقوله تعالى: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَرَ

أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ⁽⁵⁾، وهناك سلاسل أخرى كالسلسلة الشرطية والسلسلة القسمية، ومن إعجاز القرآن الكريم أن كل سلسلة لها بنية لسانية مميزة، وموضوعات خاصة بها.

معظم آيات السلسلة ذات اللازمة (يسألونك قل) تتقارب في سبب النزول، فمهما تعددت ظروف السؤال يُلاحظ أن صلة ما تربطه بنظائره، وسبب النزول عادة يكون إجابة عن سؤال للاستيضاح أو التعجيز، من ذلك أن قوله تعالى: [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا النُّبُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا النُّبُوتَ مِنْ أَسْبَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]⁽⁶⁾، "روي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتليء ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة؟ فنزلت"⁽⁷⁾ ومن الواضح أن أسباب النزول تشير إلى أن سؤالاً حقيقياً توجه به شخص أو جماعة في الواقع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وليست أسئلة افتراضية.

الردود التي يقدمها القرآن الكريم لم تكن في مرتبة واحدة لكونها تراعي ظرف الخطاب، فهي ذات اتصال وثيق بدلالة السؤال من جهة، وما يجب أن يقال للسائل من جهة أخرى؛ فعندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن (ذي القرنين) نزل القرآن بما يكفي من معلومات، وبما يضمن العبرة والعظة اللازمة، لأن جواب السؤال قرآن ينلى، وليس الجواب خاصاً بالسائل لا يتعداه إلى سواه، في حين أنهم لما سألوا عن الأهلة لم يتلقوا الإجابة المرتقبة، فكان من البلاغة إجابتهم بأسلوب الحكيم وبما هو أصلح.

وقد يكتفي النص القرآني بالإشارة إلى أن الأمر يدخل في نطاق الغيب ولا يقدم الجواب على وجه التفصيل، من ذلك سؤالهم عن الروح، فكان الجواب في عبارة مختصرة جداً، ومع ذلك فهي كافية: [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا]⁽⁸⁾.

ليس من شرط السؤال أن يكون بصيغة الاستفهام، فالعربية تتيح لمستعملها صيغاً شتى، منها ما يكون بأدوات الاستفهام كالهزمة وهل وما وغيرها، وقد يكون السؤال بصيغة لا تتضمن أداة استفهام أصلاً، وفي هذه الدائرة تقع جميع أسئلة اللازمة القرآنية المدروسة، فالمضمون عبارة عن سؤال، وصيغته في اللازمة ثابتة بالفعل المضارع القائم على لفظ السؤال (يسألونك). فما قيمة الالتزام بصيغة محددة للإجابة عن أسئلة متنوعة تبدأ من القريب المعاش في الحياة اليومية، وتمتد إلى عالم الغيب؟ وتجمع بين أنواع عدة من السائلين مؤمنين وكافرين، وأفراداً وجماعات؟..

إن عدم وجود وجه دلالي محدد للأسئلة المطروحة لا يعني أنه لا يوجد ما يربطها ببعضها، فهناك عوامل ذهنية ونفسية تقع في الخلفية، فكان من الحكمة مراعاة ذلك، ومن المؤكد أن بعض المعاني والدلالات تتطلب وضع المتلقي في أجواء نفسية خاصة، والجو النفسي لكل إجابة يقتضي أن يكون متقارباً إلى أقصى الحدود مهما كان نوع السؤال؛ فالرابط المشترك بين حلقات اللازمة في جميع مواضعها من السياق القرآني هو الاشتراك في الخلفية النفسية، وليس الاشتراك في الخلفية الدلالية، وجميع الإجابات تركز على حيرة السائل، فهي تعالج حالة نفسية مشتركة مهما تعددت الدلالة. وبذلك أمكن للسياق القرآني الواسع أن ينتظم كل الحلقات في حزم مميزة؛ إذا ظهرت منها واحدة ذكرت المتلقي بنظيرتها قبلها أو بعدها. وعلى الرغم من تباعد الحلقات في الكتابة، فهي في ذهن متقاربة، وكأنها تقرأ دفعة واحدة؛ ذلك أن القراءة في أهم جوانبها عملية عقلية مترابطة يستدعي في خلالها العقل ماضيه الثقافي وتجاربه وخبراته، وتتدخل فيها الترابطات المكانية والزمانية، وكل ما له صلة بموضوع القراءة مما هو مخزن في ذاكرة القارئ.

الدراسة النحوية:

كلمات اللازمة في كل مرة تشمل ركنين أساسيين هما السؤال فالجواب متصلين، ويقع بينهما فعل أمر، وهو على وجه التحديد الفعل (قل)، وإذ إن الإعراب فرع المعنى، فإن بعض التفاصيل النحوية ستكون مفيدة في هذا الباب؛ فالنحو باب "تترابط فيه أجزاء الكلام ترابطاً يكون في خدمة المعاني والأفكار، يضم بعضها إلى بعض موصولة الأواصر، أو مفصلاً بعضها عن بعض، ليجعل من ذلك إثارة للاهتمام والانتباه، ويعرضها في أجمل منظر وأدق صورة"⁽⁹⁾، ويفضي الأمر إلى أن النحو متصل بالدلالة اتصالاً وثيقاً.

تبدأ عبارة اللازمة بفعل مضارع، ويتصل بهذا الفعل واو الجماعة وضمير الخطاب، ثم يأتي الشأن المسؤول عنه وهو (الأهلة) و"الأهلة جمع الهلال، وجمع ما هو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً واحداً في شهر، غير كونه هلالاً في شهر آخر، فإنما جمع أحواله من الأهلة. ويريد بالأهلة شهورها، وقد يعبر عن الهلال بالشهر لحلوله فيه"⁽¹⁰⁾، وبعده الفعل (قل) ثم يرد الجواب، وهنا إعراب تفصيلي لقوله تعالى: [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ]⁽¹¹⁾

(يسألونك)، جملة مكونة من فعل وفاعل ومفعول به. فيسأل فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم وعلامة رفعه ثبوت النون، وواو الجماعة فاعل مبني على السكون في محل رفع، والكاف ضمير المفرد المخاطب متصل مفعول به مبني على الفتح في محل نصب. و(عن الأهلة)؛ عن حرف جر مبني على السكون لا محل له من الإعراب، والأهلة مجرور بعن وعلامة جره الكسرة الظاهرة، والجار والمجرور في محل نصب مفعول به ثان. و(قل) فعل أمر مبني على السكون وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره أنت. و(هي) ضمير منفصل مبتدأ مبني على الفتح في محل رفع. و(مواقيت) خبر المبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة

الظاهرة. و(لنّاس) اللام حرف جر مبني على الكسر لا محل له من الإعراب، والناس اسم مجرور باللام وعلامة جره الكسرة الظاهرة، والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب مقول القول. و(الحج) الواو حرف عطف مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، الحج اسم معطوف بالواو على الأهله وهو مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة.

هذا أنموذج إعرابي لواحدة من حلقات السلسلة، لكن بعض الحلقات تتضمن تفاصيل إعرابية أكثر أو أقل، وهو كاف للإلمام بالبنية النحوية لللازمة، بيد أن الظاهرة النحوية تتطلب تفسير المعنى النحوي، ولا يكفي في البحث العلمي الدقيق التوقف عند الإعراب.

صدرت اللازمة بالفعل المضارع، وصيغة المضارعة تصلح للدلالة على أزمنة متفاوتة كالحال أو الاستقبال، وورود هذه الصيغة يشير إلى تكرار السؤال، وأنه كان شاعراً في ذلك الزمن لطائفة من الناس، وبذلك فإن احتمال طرحه مجدداً قائم، فكانت صيغة المضارعة التي تتضمن معنى الحدوث والتجدد هي أنسب الصيغ للإيحاء بهذه الدلالات، على عكس الماضي الي سيفيد فوراً معنى حصول السؤال في الماضي الذي مرّ وانقضى قبل زمن التكلم، كذلك لا تفي بهذه الدلالات المقصودة الصيغة الاسمية التي من خواصها دلالة الثبوت والدوام، "فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت"⁽¹²⁾.

لقد أفاد استخدام شبه الجملة تحديد الأمر المسؤول عنه تحديداً دقيقاً، فالحرف عن يفيد المجاوزة؛ أي أن الفعل تعدى بواسطته إلى المجرور فهو في حكم المفعول به، إذ "إن حروف الجر بمعانيها العديدة من ظرفية وابتداء غاية واستعلاء ومجاوزة ونحو ذلك إنما تقوم بوظيفة في الكلام معنوية بالدرجة الأولى وهي تحديد علاقة الفعل بما يتأثر به وهو في الحقيقة مفعول"⁽¹³⁾ والحرف عن يمنح تخصيصاً لدلالة السؤال، فهو ليس كالحرف على الذي يفيد الاستعلاء، ولا الحرف في الذي يفيد الظرفية، وغيرهما، فتحددت دلالة السؤال بأنهم يسألون عنه بذاته لا عن غيره، ولا ما فوقه ولا ما فيه.

وجاء لفظ قل متوسطاً بين السؤال والجواب بصيغة الأمر، وهو أمر موجه مباشرة للنبي صلى الله عليه وسلم، والأمر في عمومه صالح لكل من يتأتى منه الخطاب، والأمر صيغة من صيغ الطلب تفيد عدة معان بحسب الجهة الصادر منها، والجهة الموجه إليها، وهو هنا من الأعلى إلى الأدنى، وذلك يفيد الأمر الحقيقي على سبيل الإلزام. وجاء المضمون المراد بتبليغه كونه إجابة عن السؤال بصيغة الجملة الاسمية، والدلالة العامة للجملة الاسمية تقتضي الثبوت والدوام، وهو ما يناسب الجواب

الدراسة الدلالية:

يقدم النص دلالاته بوسائل تعبيرية متنوعة، وتأتي الصورة في المقدمة كون قيمتها تكمن "في الطريقة التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به"⁽¹⁴⁾، ويشير ذلك إلى أن الصورة لا تعمل منقطعة عن نصها، بل تتلاحم معه، وتتسجم مع ما يتقدمها أو يتأخر عنها، وذلك ما يعني بوضوح أن النص الناجح صورة واحدة مهما تعددت موارده وتنوعت عناصره، غير أن البدايات تستحوذ على انتباه القارئ أكثر من سواها، لأنها عنوان لما بعدها، وتفتح لمسار الدلالة، وما دام ذلك هو ما يجري في واقع النص؛ فإن الأمر يستوجب تحليل بدايات السلسلة بشيء من التروي.

يتصدر آيات اللازمة الفعل (يسأل) مسنداً إلى واو الجماعة، وتشير هذه الصيغة إلى أن السؤال قد كان مشتركاً بين طائفة من الناس، وأنه كان يتكرر منهم، هذا ما يتبادر من ظاهر الصيغة، وأياً كان الهدف من السؤال فإن ما يبدو هو أن السؤال لم يكن شاغلاً فردياً، وإنما كان قضية شاغلة لعدد من الناس، "ومن الضروري لمعرفة أو فهم نص معين تصور المقام الأصيل، وكما كان التصور دقيقاً كان إدراك النص أيسر وفهم علاقته متاحاً"⁽¹⁵⁾

وليست كل الأسئلة من جنس واحد، ولا في مرتبة واحدة، كذلك لم تكن الرغبة في الفهم هي الهدف دائماً. وبإزاء تعدد السائلين، ومراد كل منهم، عمدت الآيات إلى الإجابة بما هو أنسب وأكثر فائدة، فلما سألوا عن الأهله أجابتهم عن فائدتها للناس والشرع، ولم تجبهم عما يترقبون من بيان فلكي أو نحوه [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (16).

ولما سألوا عن ذي القرنين أجابهم القرآن بما يكفي، ولم يذكر كل شيء في سيرته، فقال عز شأنه [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا] (17) فجاء في القصة ما هو ذكر وموعظة، ولم يسرد التفاصيل على الهوى الذي يتلجج في أنفسهم، والفضول الدافع إلى السؤال. ولما سألوا عن الساعة والروح وهما من عالم الغيب أجابهم بما يناسب من إيجاز: [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا] (18)، ومن حكمة الجواب أن يقف عند حدود عقل السائل.

كان إظهار السؤال في الآية بصيغة الفعل مناسباً لبيان العموم والتكرار، ولو أن السؤال أظهر بأداة من أدوات الاستفهام لما أفاد ما ينبغي أن يفيد؛ ذلك أن السؤال يتأثر بأدوات التعبير، وبالصيغة التي يطرح بها، كأن يكتسب دلالة زمنية خاصة مع مثل (متى) أو مكانية مع مثل (أين)، وصياغة السؤال بالاستناد إلى الفعل أتاحت للآيات الجواب بما هو أنسب، وبصرف النظر عن المغزى الأصلي للسؤال في ذوات أنفسهم.

اقترن الفعل (يسأل) في كل مرة بضمير الخطاب (ك) وهو ما يعني أن السؤال كان موجهاً مباشرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الجواب يأتي من عند المولى سبحانه محددًا وخالياً من الاجتهاد البشري، لذلك أُرِدْف فعل السؤال بالفعل (قل)، وهو طلب موجه من الأعلى إلى الأدنى، وبذلك يكون أمراً على وجه الحقيقة، فالطلب يكون حقيقياً عندما يكون

موجهاً من الأعلى إلى الأدنى، ويكون على سبيل الدعاء عند العكس، ويكون على سبيل الالتماس إذا كان من متناظرين. ويتضمن فعل القول معنى نقل الحقيقة مجردة.

وختاماً لسنا في حاجة إلى تأكيد فرادة القرآن الكريم في أداء الدلالة بأدق الوسائل التعبيرية وأقربها إلى الإدراك، ولم تكن الدراسة بصدد موازنة كلام المعبود بكلام عباده، ولكن بعض الخلاصات الخاصة باللازمة القرآنية يمكن تسجيلها هنا:

- يتميز القرآن الكريم بالإعداد النفسي المناسب لتلقي الموضوع، وفي هذا السبيل تعمل السلاسل النسقية الكبرى بمثابة رابط بين الموضوعات المشتركة.
- تتميز كل سلسلة بتركيب خاص يظهر على هيئة لازمة، فيكون البلاغ للمتلقي من أنسب أبوابه، وتعلن كل لازمة بوضوح عن انتمائها لسلسلتها.
- مفتاح السلسلة الذي يتصدر التعبير هو أشد المواضع حساسية في السلسلة، ويمثل النقل الدلالي الأكبر.
- لللازمة القرآنية جمالها الخاص الذي يرفع من قيمة التعبير، ويشد القارئ إلى المضمون.
- تقترح الدراسة على الباحثين مناقشة السلاسل التي لم تناقش حتى الآن بالتفصيل العلمي المناسب، وفي مقدمة ذلك السلسلتان الشرطية والقسمية.

هوامش البحث:

- (1) حسين خليفة صالح. فاعلية المشتقات في البنية الأسلوبية للسياق القرآني. أطروحة دكتوراه. جامعة بغداد. 2003. ص 90.
- (2) أنيس المقدسي. تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي. دار العلم للملايين. بيروت. ط6. 1979. ص 50.

- (3) محمد مهدي البصير. عصر القرآن. دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية. ط3. بغداد. 1987. ص 14.
- (4) سورة البقرة. الآية 54.
- (5) سورة الأنعام. الآية 74.
- (6) سورة البقرة. الآية 189.
- (7) جار الله محمود الزمخشري. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. دار الفكر. ج1. ص 340.
- (8) سورة الإسراء. الآية 85.
- (9) أحمد عبد الستار الجواري. نحو المعاني. المجمع العلمي العراقي. 1987م. ص 19.
- (10) محمد بن أحمد القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. دار الشام للتراث. بيروت. ط2. المجلد1. ج2. ص 341.
- (11) سورة البقرة. من الآية 189.
- (12) فاضل صالح السامرائي. التعبير القرآني. جامعة الموصل. 1986-1987. ص 24.
- (13) أحمد عبد الستار الجواري. نحو القرآن. المجمع العلمي العراقي. بغداد. 1974م. ص54-55.
- (14) داحو أسية. الإيقاع المعنوي في الصورة الشعرية محمود درويش نموذجاً. رسالة ماجستير. جامعة حسية بن بو علي. 2008-2009. ص. 27
- (15) سالم علي بيدق. دلالات الاستفهام بالهمزة وهل في السياق القرآني. سلسلة الرسائل العلمية. دار الكتب الوطنية. بنغازي. ط1. 2010. ص 70.
- (16) سورة البقرة. الآية 189.
- (17) سورة الكهف. الآية 83.
- (18) سورة الإسراء. الآية 85.